ابو الحسن علي الحسني الندوي

اسمعي يا مصر !

كتب هذا المقال بمناسبة زيارة المؤلف لمصر عام ١٩٥١م ،
و نشر في مجلة « الرسالة » .

ملتزم النشر والتوزيع
المجمع الاسلامي العلمي
ندوة العلماء ، ص. ب ١١٩ لكناؤ، الهند

www.abulhasanalinadwi.org

من مطبوعات « المجمع الاسلامى العلمى » ـ لكناؤ (الهند)

رقم : ٢٢٦

الطبعـــة الجديدة

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

اهتم بالطبع

محمد غياث الدين الندوى

المطبعـــة الندوية

ندوة العلماء ـ لكناؤ (الهند)

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

أحييك يا مصر بتحية الاسلام ، و أحيي فيك الزعامة للعالم العربى ، الزعامة التى كانت عن جدارة و استحقاق ، لاعن احتكار واغتصاب ، و إنك تحلين اليوم فى العالم العربى محل السمع والبصر ، و محل العقل و الفكر ، رضى به الناس أم لم يرضوا ، و لكن الواقع لا ينكر .

أحيي فيك يا مصر نفاق سوق العلم ، ورواج بضاعة الأدب ، و تقدير رجال العلم و الفن ، فقد أنجبتهم و احتضنتهم و دافعت عنهم ، وحدبت عليهم ، فهم أبناؤك البررة وأنت الأم الحنون .

أحيي فيك الأزهر الشريف الذى كان و لا يزال المنهل المورود فى الدين و العلم للعالم الاسلامى ، والذى لا يضارعه

www.abulhasanalinadwi.org

و لا يزاحمه فى تقدم السن و طول العمر و امتداد الظل و كثرة الانتاج معهد أو جامعة على وجه الأرض .

أحيي فيك المكتبة العربيـــة التى فاضت و امتدت كالنيل و أصدرت كتباً و مطبوعات عربية لو وضع بعضها فوق بعض لكانت مثل الأهرام أو أرفع .

أحيي فيك غيرتك على اللغـــة العربية ، و جهادك فى إحيائها و نشرها ، و رفع شأنها و توسيعها ، حتى أصبحت بجهود أدبائك و كتابك و بفضل الصحافة المصرية و الحياة السياسية ، و بفضل حركة التأليف و الترجمة و النشر ، و بفضل المجمع اللغوى ، لغة راقية عصرية علمية سياسية فنية لا تقل فى غزارة مادتها و قابليتها لتعليم العلوم العصرية و الطبيعية و الرياضية عن أية لغة من لغات الغرب .

أحيي فيك عدداً مشرفاً من الأدباء والكتاب ، فيهم الكاتب المبدع ، و المترسل القدير ، و الأديب الفنان ، و الباحث الناقد ، و العالم الضليع ، و المؤرخ الأمين ، والفيلسوف الحكيم ،

www.abulhasanalinadwi.org

والمحدث اللبق ، و الروائى المصور ، والمتهكم اللاذع ، والمضحك المطرب ، والمصلح المنتقد ، والشاعر المطبوع ، والسياسي المناقش ، والصحافى البارع . إذا كتب أحدهم فى موضوع ردد العالم العربى صداه و افتخر المتأدبون بتقليد أسلوبه و النسج على منواله ، و احتجوا به كما يحتج بشعر القدماء .

أحيي فيك يا مصر هذا و غير هذا ، ولكن لى معك اليوم شأناً آخر ، إن لى معك كلاماً أرجو أن تلقى إليه سمعك ويشهد به قلبك فأنا ضيف قد نزل بك ، و من حسن الوفادة و تمام الضيافة الاستماع إلى كلام الضيف و الاقبال عليه بالسمع والقلب .

إن مسؤوليتك يا مصر أوسع و أعظم من تأدية رسالة الأدب وخدمة لغة العرب ، و ما تجودين على الأقطار العربية الشقيقة برشحات الثقافة الأوروبية و فتات المدنية الغربية ، إنك بين آسيا وأوروبا فأنت ملتقى الثقافتين ومجمع البحرين ، إنك وسط بين مهد الاسلام و مشرق نوره ، و بين مولد الحضارة الغربية

www.abulhasanalinadwi.org

و مبعث العلوم العصرية ، فعليك مسؤولية القارتين ، وعندك رسالة الثقافتين .

فأما مسؤولية آسيا و الأقطار العربية فلا تخرجين منها يا مصر حتى تكونى قنطرة تعبر عليها إلى البلاد العربيـــة تجارب أوروبا و علومها و نشاطها و كدحها فى الحياة و جهادها للبقاء ، هنالك تقومين برسالتك و وظيفتك لهذه البلاد العزيزة ، التى ترتبطين بها برابطة دينية و روحية و ثقافية و سياسية .

و أما مسؤولية أوروبا فلا تخرجين منها حتى تبلغى رسالة الجزيرة العربية - و هى الاسلام الذى احتضنته من زمان - إلى أوروبا و حل المشاكل التى أعيت كبار المفكرين و أتعبت عظماء المشرعين ، وبذلك تؤدين واجبك المقدس نحو هـــذه القـارة الأوروبية التى استوردت منها شيئاً كثيراً من العلم و المصنوعات و المنتجات ، و نظمت عليها مدنيتك وحياتك تنظيماً جديداً ، و تحسنين إليها أكثر مما أحسنت إليك و تصدرين إليها أفضل مما صدرت إليك .

www.abulhasanalinadwi.org

إنك يا مصر قد بنيت القناطر الخيرية فانتظم الرى ، وازدهرت الزراعة و أخصبت البلاد ، و أريد أن تبنى قنطرة خيرية أخرى هى أكبر القناطر فى العالم و أنفعها ، تصل بين بحرين لم يزالا منفصلين ، و بين حضارتين لم تزالا متنافستين ، وبانفصالهما وتنافسهما شقى العصر الجديد ، فلو أنك وصلت بينهما و كنت قنطرة تتبادل بها القارتان خيراتهما و محاسنهما ، وفرت على الانسانية جهوداً وأوقاتاً كثيرة وصنتها من الضياع ، كما أن قناطرك الخيرية وفرت على مصر مياهاً كثيرة و نظمت أمر الرى .

لقد كان حفر قناة السويس أكبر حادث فى التاريخ العصرى غير مجرى التاريخ و أحدث انقلاباً فى السياسة والتجارة ، و لكن من يستطيع أن ينكر أن شقاء الأمم الشرقية كان أعظم و أعظم من سعادتها ، وأنها لم تجن من قناة السويس إلا عبودية و استعماراً ، و العالم الآن فى حاجة إلى قناة أخرى ، قناة التعارف الصحيح و التبادل المتوازن ، و إليك وحدك يا مصر القيام بهذه

www.abulhasanalinadwi.org

المبرة العظيمة لمكانك الجغرافى وأهميتك السياسية وثروتك الثقافية ومركزك الروحى ، تعلمين أن دولة لا تتزن ميزانيتها ، ولا تتحسن أحوالها الاقتصادية ، إلا إذا وجد توازن بين حركة التصدير و التوريد ، و كان تصديرها أكثر من توريدها ، ولكننا فى الشرق نورد أكثر مما نصدر ، و كانت قناة السويس أكبر مطية من مطايا هذا التوريد ، فلا نريد قنطرة أو قناة تكون معبر البضائع الأجنبية من أفكار و آراء وفلسفات و أخلاق إلى أعماق الشرق و أحشائه بل نريد قناة تساوى بين التوريد و التصدير ، وتصدر أفضل ما عند الشرق الاسلامى من رسالة و عقيدة و خلق و علم ، و تورد أحسن ما عند الغرب من منتجات ومصنوعات وتجارب واكتشافات و مرافق الحياة ، فكونى يا مصر تلك القناة الأمينة العادلة التى لا تسمح بالمرور إلا للصالح الفاضل .

إن لك يا مصر يدين ، تخذى من الغرب ما فاق فيه من علم وتجربة ، فالحكمة ضالة المؤمن ، و مدى إليه يداً أخرى ،

www.abulhasanalinadwi.org

يد المساعدة و الكرم ، و جودى عليه بما أنعم الله عليك من نعمة الايمان و شرف الاسلام فذلك الذى لا يملكه الغرب و لا يستغنى فيه عنك ، و قد انتهى به إفلاسه فيه إلى ما ترين من فوضى و انحلال فتصدق عليه بهذا الايمان و رسالة الروح ، و لا تنسى أبداً أن اليد العليا خير من اليد السفلى .

كونى يا مصر رسول الاسلام إلى الغرب ، واحملى إليه رسالة محمد ﷺ ، تلك الرسالة التى حملها العرب إلى الأمة الرومية و الأمة الفارسية فأنقذتهما من مخالب الموت و أفاضت عليهما ثوباً قشيباً من الحياة ولوناً جديداً من النشاط ، و ليس الغرب أقل حاجة إلى هذه الرسالة ـ وهو فى دور التفكك وتنازع الموت والحياة ـ من الأمة الرومية و الفارسية إليها ، و قديماً اختار الملوك وأصحاب الرسالة السماوية رسلا من عشيرتهم و الأقربين إليهم ، و لك من إبراهيم و إسماعيل و محمد ﷺ رحم ماسة و قرابة خاصة ليست لقطر من الأقطار الاسلامية بعد الجزيرة العربية .

www.abulhasanalinadwi.org

إن أوروبا قد شاخت ونضجت كالفاكهة التى أدركت و ضعف الغصن عن حملها ، فاستعدى يا مصر الاسلامية لتحلى محلها فى الزعامة العالمية و قيادة الأمم ، و ما ذلك بعزيز و لا بمستحيل ، إذا تم استعدادك الروحى و الخلقى و المادى ، و إذا كانت أوروبا قد احتفظت بالقيادة العالمية هذه المدة الطويلة وليست عندها رسالة عامة للانسانية و لا دعوة مخلصة لأمم العالم و عندها كل ما يضعف ثقة العالم بها من وطنية وعنصرية وتقديس للنسل الآرى ، وإدلال باللون الأبيض ، و نزعة تجارية و استعمار ، فكيف لا يرضى العالم بقيادتك وعندك الرسالة التى تضمن سعادة العالم كله ، و دين لا يفرق بين الأوطان و العناصر و الألوان ؟

إحرصى يا مصر على رجولة أبنائك و أخلاقهم ، و صونى شبابهم و شرفهم و دينهم و صحتهم من أن يعبث بها العابثون أو يتجر بها المتجرون ممن يعيشون على أثمان الأعراض و الأخلاق ويحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لتروج بضاعتهم وتزدهر تجارتهم ، أولئك هم أصحاب الروايات الخليعة و الصور العارية

www.abulhasanalinadwi.org

و الأدب المكشوف ، فانك يا مصر فى محل الزعامة والقيادة للشرق الأوسط ، و فى طريقك إلى الزعامة و القيادة للعالم الاسلامى ، و لا تأتى الزعامة و السيادة إلا بعد الاستقامة و الثبات فى مزالق الانسان ، و النجاح البارز فى امتحان العفة و طهارة الأخلاق ، واذكرى قصة يوسف التى مرت على أرضك و وقعت بين سمعك وبصرك كيف ثبت فى الامتحان ، و كيف حافظ على دينه وعفته ، فكانت نتيجة ذلك الثقة و الاعتماد و السيادة و الملك ، و اقرئى إن شئت : « و كذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشآء نصيب برحمتنا من نشآء ولانضيع أجر المحسنين » (يوسف : ٥٦).

بل و لا حياة و لا شرف إلا بالرجولة والأخلاق ، فكيف وأنت فى ميدان القتال و ساحة الجهاد ، فلا بد أن تحفظى وصية قائدك الكبير سيدنا عمرو بن العاص وتذكرى ما قال لخلفائه فى أرضك : « و اعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم و تشوف قلوبهم إليكم و إلى داركم » .

www.abulhasanalinadwi.org

فكافحى يا مصر الوباء الخلقى الذى يقضى على حيوية الأمة أشد مما تكافحين وباء الكوليرا الذى يقضى على حياة بعض الأفراد ، و طاردى كل من يحاول أن يزعزع العقيدة فى شعبك ، و يزلزل الايمان و يفسد الخلق أشد مما تطاردين من ينشر الوباء أو يسبب الأمراض أو ينقل إلى أرضك الميكروب ، فلم نسمع أن الأمة العظيمة ماتت و بادت بسبب وباء أو مرض ، و أن اليونان اجتاحهم مرض من الأمراض ، ولكنا قرأنا فى التاريخ وشهدت أنت أن هذه الأمم كانت كلها فريسة التفسخ الخلقى ، والأمراض الاجتماعية ، فاحذرى يا مصر - صانك الله و حرسك - هذا المصير المؤلم .

إن العالم العربى قد أحلك يا مصر من نفسه محلا رفيعاً و وضع ثقته فيك و فتح لك أذنيه و عينيه ، فاتق الله يا مصر فيمن ائتمنك و وثق بك فى نفسه و عقله ، و لا تصدرى إليه من أدبك و مطبوعاتك ما يرزأه فى إيمانه و أخلاقه و قوته المعنوية و روحه ، كما لا ترضين ولا ترضى كرامتك و مروءتك أن

www.abulhasanalinadwi.org

تصدرى إلى زبائنك من الدول والبلاد الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة ، ولا تقبلين أن يصدرها إليك أحد ، وصدقيني يا مصر العزيزة أن هذه الروايات الخليعة والأدب الماجن أفسد وأضر للأمة والحياة من الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة ، إنك زعيمة للعالم العربي فلا تغلبنك النزعة التجارية ولا تغرنك المنافع المؤقتة ، فلا يكون زعيماً ولا يكون عظيماً من يؤثر العاجل على الآجل ، والمنفعة الفردية على المنفعة الاجتماعية والأثرة على الايثار .

إنك يا مصر من أغنى بلاد الله ، ولست أعني بالغنى خصب الأرض وكثرة الموارد ، وإنك لغنية فيها من غير شك ، ولكني أعني غناك في المواد الخامة ، وهي الشعب الذي توفرت فيه المواهب والقوى ، خصوصاً ما يسكن منه في أريافك ، فهي المناجم التي لا تزال مدفونة ، والمعادن التي لم تستخرج بعد ، هذا الشعب قوي الايمان ، قوي الشخصية ، قوي الجسم ، فلو أنك أحسنت تعليمه وتربيته ، وأفدت من هذا الايمان ووضعته في

www.abulhasanalinadwi.org

محله لكان حارسك الأمين و جندك القوى و ثروتك العظيمة .

قد اختار الله لك يا مصر قارة من أوسع القارات وأكثرها مواد خامة ، هى القارة الأفريقية ولا يزال جزء كبير منها على سذاجته و فطرته ، و لا تزال فيها أمم على الجاهلية الوثنية ، وعلى الجهالة والضلالة ، ولاتزال فيها أمم كاللوح الصافى يكتب الانسان فيه ما يشاء ، و هذه الأجزاء من القارة ، وهذه الأمم خير حقل لجهودك و تربيتك ، وخير أرض لزراعتك وغرسك ، فأرسلى إليها دعاتك المبشرين و رجالك المصلحين وعلماءك المرشدين وأبناءك المعلمين ، يبلغونهم الدين ويتلون عليهم آيات الله ويعلمونهم الكتاب و الحكمة ، و بذلك تنقذين بإذن الله نفوساً كثيرة من النار ، و تخرجينها من الظلمات إلى النور ، و من ضيق الدنيا إلى سعتها و تكتسبين قلوباً نقية و أرواحاً فتية و أجساماً قوية ، و يكون ذلك خيراً لك من هذه الأمم و الدول الغربية التى تخطبين ودها وتحرصين على صداقتها ، وهى لاتدوم على حال بل تجرى وتدور مع أغراضها المادية ومصالحها السياسية ، فيوماً هى معك

www.abulhasanalinadwi.org

ويوماً مع أعدائك ، و إذا كانت معك لم تكن باخلاص وصدق ، و إنما هى المطامع والمصالح ، و ما أضعف الصداقة التى تقوم على المطامع و الأغراض !

وأخيراً أريد أن أقول فى أذنك يا مصر إن لله فى خلقه شؤوناً و إنه أعظم غيرة من كل غيور ، و إنه لا يعطى نعمة دينه إلا من يعظمها ويجلها و يقدرها حق قدرها ، فاذا رأى منك استغناءاً عن الدين وما ينبىء عن احتقار لشأنه ، واستصغار لأمره ، وزهداً فى الاسلام ، و انصرافاً عن خدمته ، وتقصيراً فى أداء رسالته ، واعتزازاً لمبدء غير الاسلام ، وتشرفاً بغير محمد عليه الصلاة و السلام ، استغنى عنك - على مآثرك السابقة و ثروتك الضخمة و مدنيتك الفخمة - « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » وجاء لخدمة الاسلام وقيادة الأمم الاسلامية ، بأمة لم تخطر منك على بال ، تعتز بالدين وحده وتتشرف برسالة الاسلام ، و تتشبع بحب محمد ﷺ ، وتلتهب غيرة دينية وحماسة إسلامية وتجاهد فى سبيل الله ولا تخاف لومة لائم ، و إن الله

www.abulhasanalinadwi.org

تعالى حذر العرب الأولين وقال لنبيه ﷺ : « فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين » وقال للمسلمين العرب : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

« ولله جنود السموات والأرض » وفى كنانة الاسلام سهام لم يرها أحد ولاتخرج فى وقتها ، ومن يدرى فلعل شمس الاسلام تطلع من المشرق ، وهذه أمم إسلامية فتية على سواحل المحيط الهندى وفى جزره تتحفز للوثوب وتتهيأ لقيادة العالم الاسلامى . فاحتفظى يا مصر العربية بمكانتك ومجدك ولاتأمنى دورة الأيام ولاتأمنى مكر الله : « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » هذه تحيتى إليك يا مصر العزيزة فتقبليها ، وهذه آمالنافيك فحققيها ، وكلمة مرة فى الأخير فتحمليها ، وهذه معذرتى إليك فاقبليها ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

****

www.abulhasanalinadwi.org